

## علم الأخلاق العسكرية : تعاليم مانيوويل ل. دافنبورت

### د. ج. كارل فيكاروتا \*

خلاصة المحرر : يواجه القادة العسكريون في كل مستوياتهم قرارات أخلاقية صعبة . تهدف هذه المقالة التي عرضت أصلاً في ندوة أقيمت لإحياء ذكرى وفاة الراحل مانيوويل دافنبورت أولاً إلى تسليط الضوء على القدوة الممتازة التي قدمها لنا الأستاذ دافنبورت كمعلم الأخلاق العسكرية , ثم إلى تحليل بعض المواضيع من أعماله ثانياً والتنويه بطريقته الفعّالة في التّطرق للمسائل الأخلاقية بشكل علم .

قيام الحروب وتسييرها أمر خطير، ولقد وصف الفيلسوف ج. م. أنسكومب هذه الخطورة وصفاً جيداً إذ يرى أن هناك " نقاط ضعف مشتركة تقود أماً في أحيان كثيرة للغاية إلى الاعتقاد أنها على حق"(1). ويعرض القيام بالحرب ذات الجدّة القصوى العسكري المحترف إلى أخطار أكثر، ففخر المرء وشرفه وقساوته أمور عادية بحيث يمكننا القول إن الحروب في أغلبيتها مجرد سوء من الطرفين المتحاربين... ومن المحتمل أن يكون القتال ظلماً، وأن الحياة في الخدمة العسكرية حياة سيئة".(2) وقد نختلف في الرّأي مع أنسكومب حول احتمال فشلنا، لكن ليس هناك مجال يعطينا فرص أوفر لأسوء أنواع التصرف الأخلاقي. أمام هذا الخطر يجذب البعض فكرة الحرب ككارثة أخلاقية Ethical يُسمح فيها استعمال القوة واستغلالها في

العلاقات الدولية بدون أي إدانة أو أية طريقة للقتال. ومن حسن الحظ أننا ندير في غالبيتنا وجوهنا ضدّ هذا الانعدام الأخلاقي.

والى جانب اعتراضنا ضد العدمية الأخلاقية وتسامحها المطلق يأتينا أيضاً بالضرورة مصدر آخر للقلق، وهو أننا نخطأ في أحكامنا الأخلاقية وكذا في محاولاتنا الصادقة النية في حل المشاكل أو تجنبها. يجب علينا ألا نخطو بسرعة وسذاجة أو من موقف خارجي من دون تقدير للطبيعة الحقيقية للصعوبات الأخلاقية خلال تسيير أمور الدولة أو القيام بالحرب. لقد تجنّب الكثير من المفكرين هذه الأخطار وأصبحوا متخصصين عقلاء في علم أخلاق الحرب، وساهموا في مواجهة المشاكل الشائكة المطروحة في مجال علم الأخلاق العسكرية. مانيوويل دافنبورت أحد أولئك المفكرين. حقاً نستطيع بإعادة تفكيرنا فهم كونه من نخبة مرموقة من الاختصاصيين في علم الأخلاق العسكرية الذين أتقنوا هذا العمل تماماً (3). يعطينا عمق تفكيره وإيمانه الخلقي القوي وانضباطه أعظم العبر. ومن واجبنا أن نعمن التفكير في ذلك المثال وأن نرى إذا كانت هناك دروس يمكننا تعلمها في الوقت الحاضر.

## دروس حول طريقة تعليم الأخلاق العسكرية

المؤسسات التي درّس فيها دافنبورت علم الأخلاق العسكرية ساعدت على أن يكون لعمله منتهى الأثر. يبلغ عادة عدد الطلاب العسكريين المعروفين بإسم "آغيس" (المزارعين) في جامعة "تكساس أي أند إم" 2000، وهم بهذا العدد الهائل أكبر فوج لطلاب عسكريين مسجلين في جامعة مدنية(4). فمن خلال مدة

عمله الطويلة في جامعة أي أند إم التي بدأ العمل فيها سنة 1967، لقّن دافنبورت دروساً في علم الأخلاق العسكرية تركت أثرها في كثير من الطلاب العسكريين في هذا الحقل الخصب من تربية الضباط. وإضافة إلى ذلك، شغل منصب أستاذ زائر مرموق في أكاديمية القوات الجوية حيث درّس الأخلاق العسكرية للمئات من ضباط المستقبل. والدرس الأول الذي نتعلمه منه كالتالي: يجب أن توضع مناهج لدراسة الأخلاق العسكرية في كل المؤسسات المعناة بتربية الضباط وتنصيبهم.

في أكثر من مرة لاحظت دافنبورت يتفاعل مع أولئك الطلاب الذين كانوا سيصبحون من قادتنا في القريب، وكان دائماً علي مستواهم، يجادلهم بلطافة وخفة دم وفي نفس الوقت يستمر في تحديه الشديد لهم، وفي أوقات أخرى كان لتعليمه في رأينا أثر إيجابي بليغ على الكثير منا في القوات المسلحة، وعلى تفكيرنا في القضايا الأخلاقية، يغرس هذا الأثر في تلاميذه واحداً تلو الآخر. ولدينا هنا درس آخر نتلقاه إذا أمعنا التفكير في تعاليم دافنبورت بحيث لا يسعنا أن ندرّس الأخلاق العسكرية بالمنشورات والرسائل الدورية والخطابات التشجيعية فقط، إذ يجب أن نغير اهتمامنا لفعالية تدريسنا ولتعزيز مصادرنا دون أن يحل ذلك محل أهم ما في العملية التعليمية. والتعامل الانفرادي مع الطلاب جزء حيوي من تلك العملية.

لقد كان لأعمال دافنبورت أثر في العديد من الطلاب في طريق تكوينهم كضباط مبتدئين بحيث درّس الكثير من المدرّسين الذين انصرفوا بدورهم لتربية أعداد أوفر من طلاب التعليم العالي. ففي كل من

أكاديمية القوة الجوية وأكاديمية وست بوينت العسكرية تتلمذ على يده معظم أعضاء هيئة التدريس من الضباط، خاصة في سنوات ما قبل التسعينات من القرن الماضي. لبعض الأساتذة العسكريين علاقة تربطهم بمهنة التعليم العالي، فهم حملة شهادة الدكتوراه ولديهم سنوات من الخبرة في التدريس، لكن هناك فعلاً عدد أكبر منهم ينتمون إلى تخصصات مختلفة، ما زالوا في بداية مهنتهم، ويتم تعيينهم لفترة ثلاث أو أربع سنوات ويدرسون عادة صفوف الطلبة المبتدئين. يشترط أن يكونوا من حملة الماجستير في المادة التي يأملون تدريسها. وفي حالة عدم توفر مدرسين عسكريين حاصلين على شهادات عليا تتكفل الأكاديمية بإعطائهم منح دراسية لمدة سنة أو سنة ونصف. وهكذا عند الضرورة تكوّن المؤسسة مدرسيها الخاصين بها. إن عدد الضباط الحاصلين على الماجستير في الفلسفة محدود كما هو متوقع، إذ تلتحق منهم فئة بجامعات لنيل الماجستير قبل الشروع في العمل. هذا وليس هناك الكثير من الجامعات التي تتعاون مع القوات المسلحة في هذا المجال. فقصر الفترة التي يمكن الاستغناء فيها عن هؤلاء الضباط ثم احتياج بعضهم لمساعدات إضافية وعدم استطاعة آخرين منهم السعي وراء شهادة الدكتوراه بالإضافة إلى تعقيدات أخرى كلها عوامل تجعله من الصعب أن تقبل أقسام الفلسفة هؤلاء الضباط. لكن دافنبورت لم يرفض أحداً أبداً. كان دائماً يتقبلهم تحت رعايته إذا كانت نيتهم العودة إلى الأكاديمية للتدريس، بل كان يساعدهم على إكمال دراسة

الماجستير في حين كانوا يواجهون رفض الآخرين. ومن خلال تكوين هؤلاء الضباط في كل من أكاديمية

القوة الجوية وأكاديمية وست بوينت العسكرية كان له الأثر البالغ في تربيتهم الأخلاقية، وهنا لدينا

درس آخر : يجب ألا نهمل الهياكل التركيبية التي تتجسد فيها مصادر إنتاج الضباط المؤهلين لتعليم دروس

علم الأخلاق العسكرية، إذ تعتبر هذه الهياكل من حجر الأساس ضمن سعيها المنظم لتكوين ضباط في

القوات الجوية يتحلون بخلق رفيع ومهارات أكيدة للتفكير الأخلاقي تؤهلهم للتدريس في الأكاديمية.

خلال زيارته للأكاديمية التي كانت تستمر سنة كاملة، كان دافنبورت يقوم بدور المرشد الهام لعدد

من رؤساء الأقسام بالإضافة إلى تكوين الكثير من أعضاء هيئة التدريس المبتدئين. في زيارته الأولى أصبح

أمين السر لمحم واكن، ألعقيد آنذاك، حيث أطلق عليه لقب مستشاره الأكبر. وفي زيارته الثانية كان للعقيد

تشارلز مايرز نفس الشعور. أمّا بالنسبة للأساتذة المبتدئين فكان دافنبورت يرأس حلقات دراسية ويدلي

بنصائح حول التأليف والنشر ويقدم العطاء الأوفر من وقته سواء في المكتب أو في المقهى، ثم كان دائماً

على استعداد للمساعدة في حل مسائل مستعصية على الصعيد الشخصي أو المهني. أصبح الفلسفة الآن

أقوى نتيجة السننتين اللتين قضاها هناك. وكان لزوار آخرين نفس الآثار الحميدة إذ أنّ الاستفادة من خبرة

علماء مرموقين توفر لنا عبرة أخرى: من اللازم أن نجد وسائل ليتكرر ترتيب هذه الزيارات على كل

المستويات في تعليم علم الأخلاق بأكاديمية القوة الجوية. وإذ لا نستطيع أن نعوض دافنبورت، فأملنا أن نستفيد من العمل المشترك والتنشيط المستمر الذي يأتي به كل خبير زائر لهيأة التدريس.

شاع صيت دافنبورت كثيراً في جامعة تكساس أي أند إم وأكاديمية القوة الجوية. وفي أوائل الثمانينات من القرن الماضي أسّس مجموعة من الضباط جمعية تساعدهم على تقديم بحوث في قضايا علم الأخلاق العسكرية في ندوة تلتقي بشكل منتظم أي مؤتمر لعلم الأخلاق العسكرية للفروع العسكرية المشتركة أصبح الآن المؤتمر الدولي لعلم الأخلاق العسكرية. وعندما طلبت المجموعة من دافنبورت أن يساعدها بمشاركته، وافق فوراً وعمل كعضو في المجلس الإداري للجمعية والممثل المدني لها، حيث قدم العديد من البحوث المجددة في المؤتمر وعمل جاهداً في جعل جامعة تكساس أي أند إم مكاناً لاستضافة المؤتمر إلى أن تقرر نقل هذا الأخير إلى مقره الدائم بواشنطن دي سي. ولم تساهم هذه الجمعية عاماً بعد عام في إغناء فكر الطلاب الجامعيين وأساتذتهم فحسب، بل في تفكير المخضرمين من الاختصاصيين المهنيين الذين ما زالوا في صراع مع نفس المشكلات، أي مشكلات مطروحة أمام أشخاص حالياً في الخدمة العسكرية ويقومون باتخاذ قرارات بالغة الأهمية خلال ممارسة حروب ولاياتنا المتحدة. وهنا تتمثل عبرة أخرى من تعاليم دافنبورت: من اللازم أن نساند ندوات علم الأخلاق التي تعقد بانتظام وتجمع بين الخبراء والمهنيين للمناظرة

حول أفكارهم واستشارة مختلف الأخصائيين. وعلى العموم يجب أن نطلع على تعاليم دافنبورت ونتخذة قدوة مع إيجاد الطرق للحفاظ على تلك الشعلة المضيئة التي تنير الطريق للطلاب واساتذتهم.

## تعاليم دافنبورت

بالإضافة إلي الاقتداء به كمعلم عظيم له فضل كبير , ينبغي علينا ألا نقصر في استعراض ما قام به من أعمال مجيدة. تُظهر لنا مؤلفاته في علم الأخلاق العسكرية مساهمات تساعد في مجالين واسعين: في المجال الأول وضّح ودعم اعتقادات خاصة من ضمنها تمديد وتغيير لعدد من المبادئ في الأخلاق العسكرية، وفي المجال الثاني بيّن لنا سبيلا يجب ألا نقصر في اتباعه وتقليده.

شملت التعاليم التي درّسها مختلف المسائل في علم الأخلاق العسكرية من بينها قضايا تتعلق بأنسب وقت للذهاب للحرب وكيفية القتال والإخلاص وكذا الشروط المطلوبة في مجالات الإخلاص المهني والكفاءة ونوعية الأشخاص المحترفين للمهنة العسكرية من الناحية الأخلاقية، كما تقع أعماله إجمالاً في إطار الحرب العادلة المعروف لدى كل دارس لعلم الأخلاق العسكرية (5).

ويليق بنا هنا أن نسلط الضوء على نصيب ولو قليل من أهم الأفكار التي وضحتها وطوّرها وكان لها

أبعد الأثر حيث كانت أيضاً منفردة وغير مألوفة في المؤلفات حول هذه المواضيع. في أول الأمر حذر

دافنبورت باستمرار من أخطار القوة العسكرية وقسّم هذه الأخطار إلى نوعين بشكل عام. أولاً إذا منحت

سلطة مطلقة للعسكريين فهم لا يتخلّون عنها وتزيد بذلك قوتهم فوق المعتاد، ثم تتحوّل مهمتهم من الدفاع إلى

الاستبداد. إن الإخلاص للزبون وفي هذه الحالة الدولة تكون له أهمية جوهرية، كما يجب للخدمة العسكرية

أن تتميز بالزمالة والأسبقية للإخلاص التام للدولة الزبون، وفي دولتنا هذه أي الولايات المتحدة نغير تقديرنا

لمبدأ السلطة المدنية على القوة العسكرية (6).

ويرتبط بهذه الفكرة تأييد دافنبورت لمبدأ الحرب العادلة المقدس، أي أن قرار الذهاب للحرب يعود

للسلطة المشروعة المؤهلة فقط (وهي خارجة عن السلطة العسكرية). فأفراد القوات العسكرية عبر التاريخ

مغتربون في اعتقادهم أنهم أدري من غيرهم من المواطنين الذين يقومون بخدمتهم وتكون لذلك عواقب وخيمة،

وفي معظم الحالات عندما " يقرر أعضاء القوات العسكرية من يظنونهم أعداء ويقومون من تلقاء أنفسهم

بأفعال هادفة لتدمير أولئك الأعداء عوضاً عن حماية الأمن والاستقرار في مجتمعهم يكون في ذلك خطر "

(7). وعلى الأصح يجب أن "تعود سلطة قرار الذهاب للحرب لأولئك الأشخاص المسؤولين عن تنصيب

الحكام والإطاحة بهم، في الولايات المتحدة هؤلاء هم المواطنون أو ممثلوهم. ولقد أوضح لنا التاريخ و يؤكد

لنا العقل أنه يصعب إقالة الذين يمارسون الحكم مباشرة إذا كانت لديهم سلطة القيام بالحرب". فإذا من

الواجب أن نمسك بلجام كلاب الحرب (8). أما الخطر الثاني للقوة العسكرية فيتجلى في ممارسة القتال و

كان لدافنبورت اهتمام بالغ بالجنود المنهمكين في الحرب وكونهم "سكارى بغيرور القوة" ، وحتى هؤلاء

العسكريون يدركون أن الدولة الزيون وأسس الأخلاق تمنحهم السلطة للقيام بأعمال العنف وقد يغترون في

ممارسة غير محدودة تلك السلطة، ويزعمون أن ذلك من الضروري للقيام بخدمة مصالح زبناهم أحسن قيام

(9). لهذا يجب أن "يميز القادة العسكريون بين زبناهم وبين الإنسانية وألا يجدوا أدلة لأعمالهم التدميرية

ضد أعداء مدنيين حتى وإن كان من المحتمل أن تخدم تلك الأعمال مصالحهم وربما مصالح المواطنين.

والواجب الأساسي لأعضاء القوة العسكرية هو حماية أمن الإنسان وسلامته. وحتى حسب القانون العسكري

فلهذا الواجب الأولوية، أمام كل الواجبات الأخرى بما فيها خدمة مصالح الزبنا الذين يكونون فقط جزء من

#### الإنسانية جمعاء" (10)

والتمييز بين المدنيين الأبرياء من أهم مسؤوليات العسكري المحترف، ولهذه المسؤولية الأسبقية أمام

مصلحتنا ومصالح دولتنا. وقد نتجت عن نفس هذا التنظيم الاصطلاحي آراء مفيدة لدى دافنبورت فيما يكون

السبب لشن الحرب. ولآرائه أكثر شمولية من آراء آخرين يدعون فقط إلى المصالح والدفاع عن النفس ويقول في هذا الصدد: " في عالم مثالي يجب أن يعاقب كل اختراق لحقوق الإنسان، لكن في عالم الواقع لا نستطيع أن نفعل ذلك، وفشلنا في ذلك ومحاولاتنا لإقرار عدالة دولية قد تؤدي إلى وعي أخلاقي أكبر وتحسن في قوانين الحرب في الواقع والتحسن في حياة الإنسانية أهم من الخدمة الأنانية لمصالحنا الوطنية" (11).

كانت لدافنبورت آراء قوية حول نوعية الأشخاص الذين يمتنون العسكرية، إذ ركز على الفضائل التي يعتبرها ضرورية في الخدمة العسكرية. ففي توسيع شرحه لآراء واكن وألبرت شوابتزر وآخرين وضّح نزاهة الأخلاق، والخبرة التقنية العالية، كما دعا إلى الشجاعة الجسمية والأخلاقية ولكمال الشخصية، واعتبر هذه الفضائل من الشروط الأخلاقية في الحياة الخاصة للمحترف العسكري، فتوجه مثلاً ضد التسامح في أمر الزنا للضابط العسكري رغم كونه أمراً شخصياً ، "فالشخص الذي يعتمد في حياته على خدعة نفسه وخدعة الآخرين في أداء المهام الملقاة على عاتقه أو في القيام بتصريحات غير سارة تلحق به شخصياً ضرراً لا يمكن أن يكون محلاً للثقة أو محترفاً للعسكرية مستحقاً للاحترام" (12). ولقد أشاد بهذه الفضائل العسكرية لكونها ضرورية في التدبير العسكري وهذه الطريقة النفعية طريقة مقياسية لتبرير هذه الفضائل، لكن في المرحلة كلها لاحظ دافنبورت أنّ هذا السلوك لا يساعد على التفوق العسكري فقط، بل وأيضاً في نفس الوقت يساهم في فكرة الحياة الفاضلة لأي أحد سواء داخل المهنة العسكرية أو خارجها. ومهما كان الأمر فعلينا ألا

نفكر في عزل الأخلاق العسكرية عن بقية الحياة الأخلاقية. فبالفعل للعسكرية أخلاق لأنها تحافظ على عدد من الخصال والفضائل الإنسانية، ويجب أن تكون هذه الفضائل كلها في تناسق تام وتناسب كاملين ليتجسد فيها سلوك محترفي العسكرية وآخرين ممن يتطلعون لحياة فاضلة. بالنسبة لدافنبورت فالأسس القوية للأخلاق تشمل التفوق العسكري ومفهوم الحياة الفاضلة، لذلك نستبعد اعتبار أحد التآزيب محارباً فاضلاً فقط لأنه كان جندياً جيداً من هذه الناحية أو تلك.

في موضوع آخر يتضمنه عمل دافنبورت إقترح أن الشكل المجرد و البيروقراطية في هيكل التركيب العسكري تخلق عدداً من المشكلات، خاصة على صعيد الأخلاق العسكرية. في أول الأمر يسمح الهيكل التركيب العسكري ان الفرق بين العسكريين وعزلهم عن باقي المجتمع، ويخلق هذا بدوره ميولاً لعدم الاستجابة مع أوضاع غير أخلاقية في فروع القوات المسلحة. في حالة دالة كان يعتقد أن القوات المسلحة غالباً ما تجد أن حاجياتها الحقيقية تخضع بشكل غير سليم لاهتمامات سياسية. وكان يظن أيضاً أن عناصر أخرى للهيكل العسكري تتسبب في مشكلات، فالقوات المسلحة التي تتكون من أفراد متطوعين فقط لا تمثل كل شرائح المجتمع وأصنافه المهنية. فالمهنة العسكرية بالذات لا تجتذب العدد الكافي من ذوي المؤهلات العالية. البيروقراطية تشجع احترافاً للعسكرية يتميز بفكرة الترقيّة عوضاً عن التفوق الحقيقي. لكن دافنبورت كان يعتقد أن البنية البيروقراطية وحدها أساس يسمح لأي قوة عسكرية أن تتولى وتقوم بإنجاز مهمتها، لذلك يتحتم على

المؤسسات العسكرية أن تغيّر أفرادها عند الحاجة استجابة للبيئة الاجتماعية ليكون هناك ضمن البنية الموجودة التزام أكبر للأهداف العسكرية (13). ومرة أخرى خص بالذكر فضائل أخلاقية خاصة يُشترط توفرها في نوع خاص من الأفراد المحترفين للمهنة العسكرية. وهكذا جاءت بعض التعاليم التي لقّنها إيانا دافنبورت.

### طريقته التعليمية

يبدو أن أصعب درس نتعلمه وهو في أقصى الصعوبة هو استيعاب الطريقة التي استخدمها دافنبورت في تطوير هذه التعاليم وتدريسها (و قد رأيناها شخصياً اقتداء به). ومهما يكن فهو درس نحن بحاجة أكيدة إليه في تدريس علم الأخلاق العسكرية. كان إجمالاً دقيقاً للغاية، كما كان معتدلاً لا يغيره تبسيط الأمور أو التعنت. بل بكل وضوح إنه لا يجب " التسرع الفوري في إلقاء أحكامنا " محذراً ضد التقصير في مجال الأخلاق وملحاً على " الاستمرار في التساؤل حول قواعد الحرب الحقيقية بدلا من إيماننا بتعصب بمعتقدات أخلاقية مجردة " (14).

قاوم دافنبورت فعلاً كل أنواع التفكير المعتمد على أتباع التقاليد في علم الأخلاق العسكرية، ووضّح بدلا من ذلك نوعا من الحكمة الأخلاقية الناتجة عن تواضع تام تجاه هذا الميدان. فمقابل البساطة المضلة

في أسلوبه في الكتابه كان يعير قيمة بالغة للتعقيدات الأخلاقية. في صلب تفكيره نجد تجنباً للالتزامات النظرية المعتمدة على الراي الوحيد والمتنافية مع الطبيعة الحقيقية للتجربة الأخلاقية. و غالباً ما كان يميل إلى الجدل النفعي لكن لم يكن نفعياً مجرداً فقط، تناول بالحديث واجبات أخلاقية لكن لم يكن في حد ذاته من أتباع الفيلسوف كانت وكان يقتبس أيضاً بين حين وآخر مبادئ من الإنجيل أو من فلاسفة ذوي معرفة في علم الدين لكن لم يعرهم مكانة مركزية في تفكيره (15) . وفي هذا الصدد كان على إدراك من أن النظريات الأخلاقية لم تكن من الدقة بمكان لتسمح بتوازن بين قيم متنافسة، بل بالإضافة إلى ذلك أن الراي الأخلاقي الحساس والتجربة أمران جوهريان. أضف إلى ذلك أنه كلما كان يتناول مسألة أخلاقية مجسمة كان يبحث عن الحقائق كلها، رغم إدراكه بصعوبة تمييز الحقائق ذات الصلة بموضوع الأخلاق. وكان على وعي أن معرفة القواعد الأخلاقية الجاري بها العمل يومياً لا تضمن أننا سنعرف أيّاً منها يتناسب مع الأوضاع التي نحن بصددھا. كان يرى أحياناً أن المسألة تتعلق بعدم وجود دافع أخلاقي أو عدم امتلاك فضائل وليس قلة فهمھا. وإذا كان قد يسعنا أن ندلي بقائمة لتحذيراته، فالمهم هو أن دافنبورت كان يدرك عدم وجود صيغة بسيطة واحدة تضمن حكماً أخلاقياً صائباً، و بهذا يصبح الأمر فناً بقدر ما هو عبارة عن علم. وفي كل الحالات ما عدا البسيطة منها فليس هناك مسلك سهل.

إن فهم دافنبورت للحكم الأخلاقي ليذكرنا بما قاله مرة الفيلسوف جي روزنبرغ حول الفلسفة بشكل عام

: لا يمكن أن نحد إتيان ممارسة الفلسفة بمعرفة بعض القواعد البسيطة، فمرات يجب أن ننظر إلى كيفية

ذلك، مثل تعلم الرقص بالنظر إلى الآخرين (16). وفي نفس الصدد ننظر إلى الطريقة التي اتبعها

دافنبورت في التعامل مع حالات صعبة في التفكير الأخلاقي بتفحص بعض الأمثلة لطريقته أثناء العمل بها.

لنأخذ مثلاً تحليل دافنبورت لمأزق واجهه الجنرال العميد لورنس كوتر الذي شارك في التخطيط

لقصف درسدن أثناء الحرب العالمية الثانية. في التسعينيات من القرن الماضي عندما أصبح من المسموح

استخدام بعض وثائق كوتر و وثائق أخرسبق لها أن كانت تعتبر سرية، درس دافنبورت المراسلات الرسمية

للجنرال المتعلقة بقراره المشاركة في القصف، إذ اعتبر أن " الإرهاب بما في ذلك قصف مناطق معينة دائماً

خطأ" (17). بإمكاننا أن نرى أنه رغم اعتقاده هذا حتماً كان ضعيفاً ومتخذاً لحل وسط، يعني أنه كان من

نوع لا مكان له في الخدمة العسكرية حسب رأي دافنبورت. لكن هذا الأخير رفض أن يدلي بحكم ويحصر

كوتر في نوع معين. لماذا ؟ أشار إلى أن كوتر حاول بشدة أن يقنع قاداته بعدم القيام بالقصف، لكنه فشل

في ذلك. "وفيما يتضح أنه نجح بما أمكنه من الناحية الأخلاقية، وإن كان قد حاول أكثر من ذلك فربما كان

قد يسيء لصدقه الأخلاقي في المستقبل" (18). وعلى ذكر ذلك، ماذا كان من اللازم أن يفعل شخص ما ذو

أخلاق عالية في مثل تلك الحالة في رأي دافنبورت ؟

للإجابة على هذا السؤال يتعين علينا أن نعتبر كما فعل كوتر الخطة التي يجب اتخاذها والتي كان لها أكبر مساهمة للانتصار في الحرب وحفظ السلام : الطاعة بعد إعلان اعتراضات أخلاقية، أم رفض الاستمرار في المشاركة في الحرب؟ من الواضح أنه كان باعتقاد العميد كوتر أنه قادر أن يساهم في التوعية الأخلاقية لقادته وفي الأخير الانتصار ببقائه في منصبه العسكري بدلا من أن يستقيل ويصبح ناقدا عموميا لمن كانوا قادته. ويدعنا كما ودع نفسه مجبرين على حفظ نزاهته وخدمة وطنه امام الحيرة الأخلاقية، فالاعتراف بحدود القدرة والعرضة للفشل واتخاذ موقف حسب أحسن بصيرة أمور تتطلب قدرا عاليا من الشجاعة الأخلاقية. ومن الأسهل بكثير أن يقوم المرء بدور الجبان الأخلاقي ويرفض اتخاذ الموقف الأخلاقي لخوفه أن يكون خاطئاً أو غير مرغوب فيه، ومن غاية السهولة أن يتصرف حسب افتراض مغرور أو معرض بحماقة للخطر أن المرء لا يدرك الأفضل كل الوقت للإنسانية جمعاء. والشخص المتحلي بالشجاعة الأخلاقية يخشى الأضرار الناتجة عن عدم فعل أي شيء كما يخشى الأضرار التي تأتي من التمسك الأعمى بالأمور المجردة (19).

لذا فالتخلي عن المبادئ دون اعتراض أو إعادة نظر جبن ، على الأقل في الوقت ذاته. ورفض اتخاذ الحل الوسط مبدأ أخلاقي شجاع وصعب وهو الموقف اللائق تقريبا بدون استثناء. مثلاً عند عدم حدوث أي شك حول لأخلاقية أمراً ما أو عدم اتباعه القوانين تتطلب النزاهة بالتأكيد لا أقل من عدم طاعة

الأمر. لكن دافنبورت اعترف في حالات مخيفة نادرة تتميز بوجود ظروف تكثر فيها ضغوط سيئة وواجبات متناقضة يكون فيها الرفض المتعقل أمراً سهلاً نسبياً بالرغم من كونه سبيل غير لائق. هل كان كوتر في الواقع متأكداً من لأخلاقية الغارة الجوية؟ إذا استقال العميد بعد إعلانه بشدة عن اعتراضه من كان الشخص الذي سيخلفه؟ هل كان من الممكن أن يكون القصف أسهل من دون وجود كوتر؟ هل كانت بدونها هناك فرص ليعارض البعض البعض الآخر؟ هل كان هناك أحد غيره يستطيع أن يتحدى الضمير الأخلاقي لقادته؟ هل كانت تفاصيل التخطيط قد شملت خطوات تخفف من تعارضها مع الأخلاق رآه هو؟ بكل هذه الأسئلة من دون جوابات الطريق الصواب ليس واضحاً. لقد أشار مايكل والزر إلى نفس الصعوبة في حالات نادرة حيث يجب أن نعمل شيئاً رغم رأينا أنه خطأ، وفي ضمن اهتمامنا الدائم بفعل الصواب " نقول عن أشخاص كهؤلاء أن لديهم أياد قذرة " ويجب على أولئك الأشخاص رغم تصرفهم تصرفاً حسناً في الحقيقة والقيام بعمل ما تتطلبه مناصبهم ، أن يتحملوا المسؤولية والإثم (20). سواء اتفقنا مع دافنبورت أو لم نتفق معه حول الفكرة العامة وكونها جاءت في سياق قضية كوتر، فافتراحه يجعلنا نتوقف قليلاً قبل الانصراف إلى خاتمة أن كوتر أخطأ في اتخاذ الحل الوسط. وقد بين لنا دافنبورت أن الأحكام الأخلاقية ترتبط غالباً بأكثر ما نراه بعقلنا وعيننا.

وتوضح لنا حالة أخرى نفس النقطة. خلال السبعينات من القرن الماضي كان دافنبورت صحبة

وايكن وجي غلين غزي يشارك في مؤتمر الجبال - السهول للفلسفة (إشارة إلى إسم المؤتمر) وفي الأشهر

الأولى من ذلك العقد قرر المؤتمر أن يعلنوا عن بيان يحمل اسمه ويعبر عن موقفه ويدين بصورة

واضحة حرب فيتنام. و طلب وايكن الذي كان عقيدا في القوة الجوية آنذاك ألا ينطق المؤتمر بصوت واحد

وإلا فكان هو وباقي الفلاسفة العسكريين مضطرين إلى الانسحاب من المؤتمر. وقف دافنبورت مع الضباط

العسكريين بالرغم من اعتقاده أن الحرب كانت لأخلاقية. إذا اعتبرنا ما في الأمر ورغم أن آخرين أبدوا عدم

فهمهم للموقف فقد فهم هو ظروف الولاء التي وجد الضباط أنفسهم فيها، احترم موقفهم ورفض أن يتخذ

النظرة المبسطة للأمر حتى ولو أنه كان في ظاهره في "المكانة الأخلاقية الأعلى".

يعطينا رد فعل دافنبورت حول مسألة القيام بتصريحات خاطئة مثلا آخر لتفكيره العاقل الرزين. في

الثمانينات من القرن الماضي وابتداء من وقت حرب فيتنام لمدة أكثر من عشر سنوات كشف عن عدد من

التقارير الكاذبة كبيرة وصغيرة، وبدأت تعمّ الهستيريا في أوساط المعلقين، لكن دافنبورت لم يتسرع للانضمام

لهذا الاتجاه. قبل ذلك كان قد قام ببحث حول مقتل لواء البحرية أمير البحر الياباني إسيروكومو يماموتو في

آخر الحرب العالمية الثانية. فمن قتله ؟ لم يتفق الطيارون المكلفون بالمهمة، لكن دافنبورت لم يظن

كالكثير أن بعضهم كانوا يكذبون بكل بساطة. وفي بحثه الجيد لتلك الحالة كشف عن تأثير الإرهاق

والتوقعات والقيم الشخصية وعوامل عديدة أخرى في الرأي. " نظراً للإرهاق الناتج عن القتال وتزايد من جراء نظم الأسلحة الجديدة وتعقيدها ونظراً لأن هذا الإرهاق قد يضاعف الميل الطبيعي إلى الاستجابة للحوافز حسب قيم شريطة، من الملاحظ ليس أن هناك تزايد في التصريحات الخاطئة المتعلقة بالعمليات العسكرية، بل أن هناك عدد أقل نسبياً من المحتمل وقوعه " (21) وكعادة المحلل المعتدل والواضح في تفكيره رفض أن ينضم إلى موجة آراء متهورة لا أساس لها، وحاول أن يقنعنا باتخاذ نفس الموقف.

أبدى دافنبورت رأيه أيضاً في قضايا جدلية مثل قضية الشذوذ الجنسي ضمن أفراد السلك العسكري وقضية دور النساء في القتال واتخذ مواقف معتدلة تتنافى مع الآراء المحافظة والآراء الثورية في آن واحد. ودفاعاً عن موقفه أصر على تحليل دقيق للنتائج الحقيقية للسياسات المقترحة لفروع قواتنا المسلحة وبلدنا. فقبل إبعاد النساء من القيام بأدوار في القتال بناء على نتائج سيئة مزعومة، يجب أن نقوم بأبحاث علمية ونوضح الصعوبات في أدماجهن ونبين أن لوجودهن أثر على الاستعداد للحرب. رغم أن دافنبورت كان يشك في وجود أدلة على ذلك فقد انتظر بكل صبر ان تأتي التجربة الواقعية بالحكم. وقبل منع أفراد شاذين جنسياً من الخدمة العسكرية بناء على أسباب مماثلة، يجب أن نقوم بأبحاث تظهر أن تصرفهم قد يخل فعلاً بالخلق وبشكل جاد أيضاً بقدرتنا على القيام بمهامنا العسكرية. لم يتبع دافنبورت آراء جدلية مسبقة أو حلول سريعة منبثقة من أحكام استباقية أو من مرجع فكري معين.

## الخاتمة

لقد استفدنا كلنا سواء داخل الخدمة العسكرية أو خارجها مما فعله دافنبورت ومن الطريقة الحكيمة ذات العناية البالغة التي اتبعتها في عمله، إذ وضع في رأينا مقياسا عاليا لممارسة علم الأخلاق وتعليمه، ويجب أن نسعى جادين لبلوغ ذلك المقياس. إن القادة الحاليين وقادة المستقبل في حاجة إلى التعرض للمشكلات الأخلاقية المنبثقة مما يفعلونه. كما أنهم بحاجة إلى تربية في المهارة الفلسفية والحكمة العملية المطلوبتين في حل هذه المشكلات. ولسد هذه الحاجيات يجب علينا

(1) أن نقنع الدارسين والمدرسين من أعلى درجات التفوق في القوة العسكرية وخارجها أن يتابعوا العمل في

مجال العلوم العسكرية

(2) أن نشجعهم على العمل في المؤسسات العسكرية كالأكاديميات والكليات الحربية ومؤتمرات محترفي

المهنة العسكرية حيث سيكون لهم تأثير في القوة العسكرية على كل المستويات

(3) أن نضع سياسات للمؤسسات ونصنها وندعمها (بما في ذلك تكوين المدرسين ومراعاة الأسبقية في تعيين

المدرسين والترتيبات للأساتذة الزوار و الدعم المالي للسفر، إلخ)، أي كلما يمكن أن يسهل ذلك.

\* كان مانيويل دافنبورت عالم الأخلاق العسكرية المعترف به عموماً وصاحب المكانة المرموقة معروفاً لدى الكثيرين خاصة في قواتنا الجوية بقيادته وشجاعته الأخلاقية ولطفه وروح المساعدة فيه إضافة لفكاهته وخفة دمه. أظن أن الذكرى السادسة لوفاته (حيث توفي في يوم 31 أغسطس 2000) توفر لنا مناسبة لنتذكر هذا الرجل الجليل وتأثيره و قدوته الحسنة والطريقة الفريدة من نوعها والتعاليم التي درسها.

اتوجه بالشكر للدكتور روبن سميث رئيس قسم الفلسفة في جامعة تكساس أي أند إم لدعوتي لتقديم الطبعة الأولى لهذه المقالة سنة 2001. أتقدم أيضاً بجزيل الشكر لعشرات الأشخاص الذين تفضلوا بحديثهم معي عن مانيويل دافنبورت خلال تحضيرتي للمقالة، أما الدكتور جيمس تونر فقد تكرم بعدد من الاقتراحات الوجيهة، كما تحلّى كل المحررين في مجلة قوة الجو والفضاء بصبر أيوب في عملهم معي لإعداد هذه المقالة للنشر، فلهم كل امتناني.

## الملاحظات :

1. ج.إ. أنسكوب : " الحرب وجريمة القتل " في كتاب الحرب والأخلاق والمهنة العسكرية تحقيق ملهم. واينكن ، بولدر، كولورادو : مطابع وستفيو، 1986، ص. 286.
2. نفس المرجع.

3. هناك مرجعان يستحقان الذكر في سياق التفكير حول دافنبورت: جي غزي وملهم وايكن. فخلال تدريسه في كولورادو عزز صداقته الشخصية والمهنية بهما، وكان لأثرهما فيه دور في انطلاقته وشق طريقه.

4. للمزيد من المعلومات حول سلك الطلاب العسكريين راجع موقع الإنترنت التالي:

<http://www.aggiecorps.org/home/about>

5. للقراء الذين ليست لديهم معرفة عن نظرية الحرب العادلة توجد ملخصات جيدة كثيرة، لن نحاول إعادة

صيغتها أو تلخيصها هنا، من الكثير من بينها راجع جيمس ترنر جونسون: سيرة الحرب العادلة والتماسك في

القتال: بحث تاريخي وأخلاقي: برنستون، نيو جرسى 1981. بول رمزي ، الحرب والضمير المسيحي: كيف

ستخاض الحرب العصرية بعدالة؟ (دروهم ، نورث كارولينا، مطابع جامعة ديوك، 1961). نيكولاس ج.

فوسيون: علم الأخلاق العسكرية: نظرات حول المستقبل (جامعة ستانفورد، مطابع مؤسسة هوفر، 1990)،

مارتن ل. كوك: المحارب الأخلاقي: علم الأخلاق والخدمة في القوة العسكرية الأمريكية (مطابع جامعة

نيويورك بأليني، 2004).

6. مانيوويل دافنبورت : زمانة العنف: قراءات في علم الأخلاق العسكرية، مجموعة أعماله الكاملة في علم

الأخلاق العسكرية (أكتون ، ماستشوستس مؤسسة كوبلي للنشر ، 2000، ص.4.

7. نفس المرجع ص. 79

8. نفس المرجع ص. 80

9. نفس المرجع ص. 5

10. نفس المرجع ص. 2-3

11. نفس المرجع ص. 81

12. نفس المرجع ص. 171

13. نفس المرجع ص. 29

14. نفس المرجع ص. 144-181

15. حسب التفكير النفعي حول طبيعة علم الأخلاق، النظر فقط إلى نتائج الأفعال إذا تم تقييمها من ناحية

تعميم أكثر خير إلى أكبر عدد ممكن في حد ذاته مبدأ الأساس للأخلاق.

16. جي.ف. روزنبرغ : ممارسة الفلسفة: كتاب للمبتدئين، الطبعة الثانية 1984 (مطابع برنتس

vii) هال ،

17. دافنبورت : زماله العنف، ص. 116، لوصف مخالف للغزو راجع فريدريك تيلر، درسدن 13 شباط /

فبراير 1945 ( نيويورك: مطابع هاربر كولنس، 2004 مراجعة الرائد بول غ. نيسن، مجلة قوة الجو

والفضاء، العدد 19، رقم 3، خريف 2005، ص. 122-124).

18. دافنبورت : زمالة العنف، ص. 119

19. نفس المرجع، ص. 120

20. مايكل ولزر : حروب عادلة وغير عادلة : جدل أخلاقي مع أمثلة من التاريخ، الطبعة

الثالثة ( نيويورك ، منشورات بيبكس ، 2000، ص323). راجع أيضاً مقال بعنوان : العمل السياسي:

مشكلة الأيدي القذرة، مجلة الفلسفة والشؤون العامة، العدد 2، خريف 1972، ص. 160-180

21. دافنبورت : زمالة العنف، ص. 64

**المؤلف:**

د. ج. كارل فيكاروتا (بكالوريوس من جامعة مرسر، ماجستير من جامعة إمري، دكتوراه من جامعة نورث

كارولينا بتشابل هل) أستاذ الفلسفة بأكاديمية القوة الجوية بكولورادو حيث درّس لمدة 13 سنوات. يحاضر في

مجال علم الأخلاق العسكرية عبر الولايات المتحدة وكندا.

تولى تحقيق كتاب العلوم الأخلاقية والنزاهة و المسؤولية (مطابع جامعة برادو، 2001)، كما نشر له عدد من

المقالات من بينها: هل المحترفون مقيدون بمقياس أخلاقي أعلى؟ في مجلة القوات المسلحة والمجتمع،

1997.